بسم الله الرحمن الرحيم

إِعْلَاءُ قِيمَةِ السَّعْيِ وَالْعَمَلِ ٢١ صَفَرٍ ١٤٤٧هـ

أُوصِيكُمْ وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللهِ، فَهِيَ خَيْرُ وَصِيَّةٍ أَوْصَىٰ اللهُ بِهَا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ مِمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ بِتَأْكِيدِهِ، وَالْحَثِّ عَلَيْهِ: الْعَمَلَ وَبِنَاءَ الْأَرْضِ وَعِمَارَتَهَا، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ وَقْتَ قِيَامِ السَّاعَةِ، أَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ»، عَنْ أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنْ قَامَتْ عَلَىٰ أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ، وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا».

وَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ نَسْعَىٰ فِي الْأَرْضِ، وَنَبْتَغِيَ مِنْ فَضْلِهِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَعَ عُلُوِّ دَرَجَتِهِمْ، وَنُبْلِ مَكَانَتِهِمْ يَمْتَهِنُونَ حِرَفًا وَأَعْمَالًا، فَنُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ احْتَرَفَ صِنَاعَةَ السُّفُنِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾، وَدَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ، وَمَعَ هَذَا كَانَ حَدَّادًا يَصْنَعُ الدُّرُوعَ، قَالَ تَعَالَىٰ عَنْهُ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾، وَمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَمِلَ أَجِيرًا رَاعِيَ غَنَمٍ عَشْرَ حِجَجٍ، فَنَكَحَ ابْنَةَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ فِي مَدْيَنَ، وَكَانَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْمَلُ نَجَّارًا، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ زَكَرِيَّاءُ نَجَّارًا»، وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ خَيْرُ الْأَنْبِيَاءِ رَعَىٰ الْغَنَمَ فِي صِبَاهُ، وَتَاجَرَ بِمَالِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي شَبَابِهِ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَىٰ الْغَنَمَ»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَىٰ قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ».

وَهَكَذَا الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَمِلُوا مِنْ كَسْبِ أَيْدِيهِمْ، مِنْهُمُ الرَّاعِي، وَالْكَاتِبُ، وَالْخَادِمُ، وَالتَّاجِرُ، وَالْخَيَّاطُ، وَالنَّبَّالُ، وَالسَّقَّاءُ، وَالْفَلَّاحُ، وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ تَقَاعُسَ شَبَابِنَا عَنِ الْعَمَلِ، بِحُجَّةِ عَدَمِ مُلَاءَمَتِهِ لَهُمْ سَبَبٌ رَئِيسِيٌّ فِي انْتِشَارِ الْبَطَالَةِ، مِمَّا زَادَ فِي مُعَدَّلَاتِ الْجَرِيمَةِ، بِسَبَبِ الْفَرَاغِ وَالْحِقْدِ عَلَى الدَّوْلَةِ وَأَصْحَابِ الْأَمْوَالِ.

وَإِنَّهُ لَمِنَ الْجَهْلِ وَالْحَمَاقَةِ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُ النَّاسِ نَحْوَ الْحِرَفِ الْيَدَوِيَّةِ نَظْرَةً دُونِيَّةً ازْدِرَائِيَّةً. فَهَلْ يَلِيقُ بِأَنْ نَصِفَ مَنْ يَعْمَلُ فِي رَفْعِ الْقُمَامَةِ، وَإِمَاطَةِ الْأَذَى، وَتَنْظِيفِ الطُّرُقَاتِ بِصِفَاتٍ قَبِيحَةٍ، وَنَنْظُرَ إِلَيْهِ نَظْرَةَ احْتِقَارٍ وَازْدِرَاءٍ؟ مَاذَا لَوِ امْتَنَعُوا عَنِ الْعَمَلِ، كَيْفَ سَتَكُونُ شَوَارِعُنَا وَطُرُقَاتُنَا، وَسَنَعْرِفُ حِينَهَا قِيمَةَ مَا عَمِلُوهُ لِمُجْتَمَعِنَا؟ أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، أَوْ شَابًّا، فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا، أَوْ عنه، فَقالوا: مَاتَ، قالَ: «أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي»، قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا، أَوْ أَمْرَهُ، فَقالَ: «دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ»، فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: خَلَقَ اللهُ النَّاسَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَأَنْشَأَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَهُمْ فِيهَا، وَتَتَعَاقَبُ عَلَى هَذَا الِاسْتِخْلَافِ الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ، إِلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا؛ وَذَلِكَ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وَالْأَحَقُّ بِهَذَا الِاسْتِخْلَافِ، وَالْأَجْدَرُ بِهِ الصَّالِحُونَ الْمُصْلِحُونَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾.

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ كَانَ نَبِيُّنَا ﷺ يَكْرَهُ لِلْعَبْدِ سُؤَالَ النَّاسِ مَا دَامَ قَادِرًا عَلَى الْعَمَلِ، وَيَجْعَلُ الْمَسْأَلَةَ بِلَا عَمَلٍ ضَرْبًا مِنَ النَّدَمِ. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَزَالُ الرَّجُلُ

يَسْأَلُ النَّاسَ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ». فَمَاذَا سَيَقُولُ لِرَبِّهِ مَنْ حِرْفَتُهُ التَّسَوُّلُ؟!

لَقَدْ غَدَا التَّسَوُّلُ حِرْفَةً، كَثُرَ بَيْنَ النَّاسِ طَالِبُوهَا وَمُحْتَرِفُوهَا، وَتَنَوَّعَتْ قَصَصُ الْمُتَسَوِّلِينَ بَيْنَ الْمَعْقُولِ وَضُرُوبِ الْخَيَالِ، حَتَّىٰ أَضْحَىٰ التَّسَوُّلُ فِي الْقِطَارِ وَالْحَافِلَةِ، وَالسَّيَّارَةِ الْخَاصَّةِ وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَعَلَىٰ أَبْوَابِ الْمَدَارِسِ وَالْمَسَاجِدِ وَالْحَدَائِقِ وَالْمَطَاعِمِ، وَالْأَسْوَاقِ وَالْمَقَاهِي وَغَيْرِهَا. أَفْوَاجٌ جَدِيدَةٌ تَدْخُلُ سُوقَ التَّسَوُّلِ كُلَّ يَوْمٍ، وَمِنَ الْعَجَبِ الشَّدِيدِ أَنْ يَكُونَ التَّسَوُّلُ وَنَبْذُ الْعَمَلِ حِرْفَةً، مَعَ أَنَّنَا نَفْتَقِرُ إِلَىٰ الْعَمَلِ وَالتَّنْمِيَةِ.

أَلَا تَبًّا لِيَدٍ مُتْرَفَةٍ، وَنَفْسٍ رِخْوَةٍ، وَعَيْنٍ سَبَّاقَةٍ إِلَىٰ الشَّهَوَاتِ، وَلِسَانٍ طَلِيقٍ فِي الشُّبُهَاتِ، لَا يُحْسِنُ إِلَّا خِبْرَةَ ضَيَاعِ الْأَوْقَاتِ فِي الْحَسَرَاتِ، وَمَجَالَاتُ هَؤُلَاءِ الْبَطَّالِينَ هِيَ الْمَقَاهِي وَالنَّوَادِي، وَاللَّعِبُ وَوَسَائِلُ الِاتِّصَالِ الَّتِي تُضَيِّعُ الْأَعْمَارَ سُدًى بِغَيْرِ طَائِلٍ، مَعَ نَفَادِ الْمَالِ، وَإِنْفَاقِهِ فِي تَوَافِهِ الْأُمُورِ.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ لِلْعَمَلِ فِي الْإِسْلَامِ آدَابًا إِسْلَامِيَّةً، مِنْهَا:

الْأَوَّلُ: أَنْ يَنْتَوِيَ بِعَمَلِهِ وَسَعْيِهِ عَلَىٰ مَعَاشِهِ كَفَّ النَّفْسِ عَنِ التَّطَلُّعِ لِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَكَفَّ الْأَبْنَاءِ عَنِ السُّؤَالِ، وَهَذَا مِمَّا يُقَرِّبُ إِلَىٰ اللهِ ﷻ.

الثَّانِي: أَلَّا يُلْهِيَهُ عَمَلُهُ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ ﷻ. لَقَدْ عَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الصَّحَابَةِ ﷺ لَمَّا انْصَرَفُوا عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ لِمُلَاقَاةِ الْقَافِلَةِ التُّجَارِيَّةِ الْقَادِمَةِ قَائِلًا لَهُمْ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، وَأَثْنَىٰ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ آخَرِينَ لَا يُلْهِيهِمْ ذَلِكَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

الثَّالِثُ: التَّبْكِيرُ إِلَىٰ عَمَلِهِ. وَهَذَا سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ الْبَرَكَةِ وَالْغِنَىٰ؛ لِمُوَافَقَةِ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ، أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ عَدَا النَّسَائِيِّ، عَنْ صَخْرٍ الْغَامِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا». وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشًا بَعَثَهُمْ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، وَكَانَ صَخْرٌ رَجُلاً تَاجِرًا، وَكَانَ يَبْعَثُ تِجَارَتَهُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ؛ فَأَثْرَىٰ وَكَثُرَ مَالُهُ.

الرَّابِعُ: أَنْ يَكُونَ الْعَامِلُ قَوِيًّا أَمِينًا. فَقَدْ ذَكَرَتِ ابْنَةُ الرَّجُلِ الصَّالِحِ صِفَاتِ الْعَامِلِ الْحَقِّ قَائِلَةً: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، وَمِنْ أَمَانَتِهِ أَنْ يَصْدُقَ وَلَا يَغُشَّ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَىٰ صُبْرَةِ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» قَالَ أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي».

الْخَامِسُ: أَنْ يُتْقِنَ عَمَلَهُ. أَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ».

اعْلَمُوا وَفَّقَكُمُ اللهُ أَنَّ أَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ يَسْعَوْنَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فِي إِضْلَالِ شَبَابِنَا بِالشُّبَهِ الْمُضِلَّةِ، وَالْمَنَاهِجِ الْمَوْبُوءَةِ، وَالتَّحَزُّبَاتِ الْمَشِينَةِ، وَبِالشَّهَوَاتِ وَالْمُغْرِيَاتِ، حَتَّىٰ سَمَّمُوا أَفْكَارَهُمْ، وَزَرَعُوا الْمُيُوعَةَ وَالْخَلَاعَةَ فِي نُفُوسِهِمْ، وَخَطَّطُوا وَدَبَّرُوا لِتَبْدِيدِ هَذِهِ الثَّرْوَةِ الْعَظِيمَةِ، وَتَعْطِيلِهَا وَإِفْسَادِ طَاقَتِهَا، وَتَخْرِيبِ قُوَّتِهَا، فَكُونُوا يَدًا وَاحِدَةً بِالتَّعَاوُنِ بِدَعْوَتِهِمْ، وَالسَّعْيِ فِي صَلَاحِهِمْ بِكُلِّ تَلَطُّفٍ وَرَحْمَةٍ وَرِفْقٍ؛ لِنَحْظَىٰ بِشَبَابٍ مُسْتَقِيمٍ عَلَىٰ الْجَادَّةِ، يَتَّبِعُ سُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ، وَيَنْهَجُ مَنْهَجَ سَلَفِهِ الصَّالِحِ، يَكُونُ أَدَاةَ بِنَاءٍ لَا مِعْوَلَ هَدْمٍ لِبَلَدِهِ وَمُجْتَمَعِهِ، يُحَوِّلُ الْخَيْبَةَ إِلَىٰ أَمَلٍ، وَاللَّهْوَ إِلَىٰ عَمَلٍ، بَعِيدٌ كُلَّ الْبُعْدِ عَنِ الشُّبَهِ، وَأَمَاكِنِ الْفَسَادِ، وَمَوَاطِنِ الْخَلَلِ.